لن ادع احدا يلمس المشهد الذي اتأمله . ادرك انه مصنوع من البؤس والخرق البالية، لكنه يفعم حاجتي الجمالية ، ويمكنني من امتحان تفوقي في تذوق حالة الفقراء ، كأنهم وجدوا هنا لارضاء نزوتي . أمن قبيل الصدفة ان يكون قصر « المشوار » في الرباط ، متاخما لاحياء تنكية تحوي ٦٠،٠٠٠ شخص ، او ان تكون بعض المخيمات الفلسطينية ملاصقة لاجمل ابنية بيروت ؟ أمن قبيل الصدفة ان يقضي الاوروبيون عطلتهم ، اكثر فاكثر ، في البلدان المتخلفة ، مظهرين شغفهم بالتجول في الاسواق القديمة قبل العودة الى القصور المبنية خصيصا لهم ؟ الى حد ان ولوج عربي رث الثياب او اميركي اسود في احد الاحياء السكنية الراقية أمر بحد ذاته كاف لاستنفار الشرطة .

اليكم ما اجابني به عامل مغربي عندما سألته عما يخشاه اكثر من اي شيء في باريس : « السير في الشارع ، لان كل المارة ينظرون الي » . وبالطريقة نفسها ، فعندما يعرض المهندس المعماري على الزبون منظرا لا يمكن حجبه في اعالي بناء فخم ، فلا يكون ذلك المنظر الا عبارة عن مزرعة قديمة وكرم يعمل فيهما رجال ونساء . فالبرجوازي «يتفرج» على المنظر — كما يتفرج الحسن الثاني على الاكواخ — ولكن ، قلما نتساءل عما اذا كان المنظر بحد ذاته — عما اذا كان اولئك المزارعون وعمال الكرمة راضين بأن يكونوا « فرجة » ؟ وماذا يدعو سكان المخيمات الى قبول وضعهم كمنظر يتأمله البرجوازيون ، وشهود صامتين على ملذات البرجوازية المحتاجة لذلك القدر من الفراغ والتسليات ؟ ان لم تكن تلك « الفرجة » الا منظورة ، لشعر المتفرج بطمأنينة ساكنة وسادية لانه ليس في المشهد ، ولا هو في احد أرجائه . والمتفرج محافظ بمعنى انه لا يريد لتلك « الفرجة » ، ان يتغير لونها او شكلها . فبؤس المقموعين يضفي الوانا بديعة على تلك اللوحة — او « الفرجة » — التي يتأملها الغربي . لذلك لا يجب تغيير أي شيء ، « فذلك قد يفسد جمال المنظر » ، يقول البرجوازي . و« الفرجة » « فرجته » هو . اما اذا كان المتفرج يستغل المنظر الذي يتأمله ، فذلك يمكنه من اقامة نوع آخر من العلاقات : اذ لا يكتفي الناظر ، هنا ، بالقيام بدور الحراسة السلبي ، بل يصبح سيد تغييره العملي ، علما بأن هدف عملية التغيير هذه لا يمكن الا أن يكون انتاجا لصالح السيد . وهذا الاخير لا يكون أبدا مشهدا ، ولا حتى جزءا من مشهد ، ولكنه قد يعرض نفسه للفرجة ، وهذا أمر يختلف كليا عن « المشهد » . فهو يرفض ان يراقبه المستغل (بفتح الغين) ، وحتى ان يراه . ولكن المستغل يراقب السيد بانتباه وصمت : وغالبا ما يكون ذلك لسوء طالع السيد .

ما قلته في الفقرة اعلاه انما يهدف الى الايضاح بأن استملاكا سلبيا وشهوانيا يتطابق بالضبط مع استملاك ايجابي وتغييري : ما ان تنظر العين ، وتتذوق لذة النظر ، حتى تريد الاحتفاظ بالصورة المنظورة ، فتسلب الصورة — المشهد للاحتفاظ بها والنظر اليها، كما يسلب السيد مشهده لاجل متعة أخرى .

لا يحلو لاحد أن يكون فرجة ينظر اليها الرجل القوي . وكل نظرة تتمتع بنفسها ، ان ارادت النظر لمجرد النظر ام الاحتفاظ بالشيء للتمتع بالنظر — هي خالية من البراءة . وما أتمناه ، هو الا يتمكن نظر الاوروبيين بعد الان من رؤية « الطابع المحلي » ، وان يختفي كل « طابع محلي » ، والا يقدم المقهورون اي شيء يمتع الانظار : مثلما قد تكون حالة أيلول الاسود بلا قناع ، في ميونيخ . ولكن ، هل سيحدث كل شيء وكأنه تحد للغرب ؟

كل ذلك مرهون بالطبع بالاسلوب الذي ستختاره الثورة الفلسطينية لنفسها ، فاذا ارادت الاحتفاظ بسمعتها لدى البلاد الغربية ، وحاولت أن تعطي عن نفسها صورة مقبولة لدى الغرب ، وحرمت نفسها ، تبعا لذلك ، من كل الحيل والاساليب التي تدينها اخلاق واخلاقيات الامم . ستخسر ذلك ولن تكسب شيئا عوضا عنه ، اذ ان يقظة